الأهرام

المصدر: المجلة السياسية

التاريخ: ٢٩ سبتمبر ١٩٩٢م

البلقان فوق بركان!

كوسوفا: برميل البارود

هل يقود الصرب العالم الى حرب عالمية ثالثة؟، كان ذلك هو عنوان مقال نشرته «الاوبزرفاتير» الفرنسية في الاسبوع الاخير من الشهر الماضي، صحيفة «نيويورك تايمز» خرجت علينا بسؤال مشابه هو: هل تشعل المذبحة في البوسنة شرارة حرب اقليمية أكبر في البلقان؟، أما «الواشنطن بوست» فقد قدمت اجابة ولم تطرح سؤالا، اذ قالت في عنوان مباشر لها ان: نيران البلقان تهدد مستقبل اوروبا.

تلك نماذج لكتابات اخرى عديدة لم تعد ترى في اجتياح الصرب للبوسنة -حتى اذا تحقق بالكامل- نهاية لمشكلة، وانما اعتبرته بداية لعديد من المشكلات التي قد تهدد مستقبل اوروبا وتدفع بها الى شفير حريق كبير، وهو ما عبر عنه احد كتاب مجلة «نيوزويك»، روبرت ساموسلون، حين قال: ليس امامنا سوى ان نبتهل الى الله بألا تكون مأساة يوغوسلافيا نذيرا لشيء أخر، لكنها اذا كانت مقدمة لأمر ما، فان ما نتوقعه هو ان يكون بداية لطوفان من الفوضى التي يحركها الصراع العرقي والانهيار الاقتصادي والسقوط السياسي في اوروبا الشرقية وما كان يعرف سابقا بالاتحاد السوفييتي.

الأمر يتجاوز ازمة الضمير الاوروبي، الذي يتعامل بقدر مخز مدهش من عدم الاكتراث مع المذبحة الحاصلة في البوسنة، الأمر الذي صدم كثيرين وأصابهم بالاحباط وخيبة الامل، حتى قال احد معلقي «نيويورك تايمز» ان معارك سراييفو «تؤكد سقوط الحضارة»، وذهب الرئيس البوسنوي علي عزت بيجوفتش في أخر حديث صحافي له الى ان الغرب خان نفسه في تعامله مع مأساة البوسنة.

المسألة في دراسات وتوقعات عديدة راهنة، أبعد من الضمير والاخلاق، اذ هي تمس بصورة مباشرة الامن والاستقرار، ومن ثم المصالح الاوروبية ذاتها.

كوسوفا: برميل البارود

اللغم الجاهز للانفجار واشاعة الاضطراب في البلقان كامن في «كوسوفا»، وهو الاقليم المقتطع من ألبانيا، الذي الحق بصربيا منذ اواخر القرن الماضي، ولاتزال تسكنه اغلبية ألبانية مسلمة (حوالي مليونين ونصف المليون)، وقد نجح ابناؤه في الحصول على الحكم الذاتي في أواخر عهد الرئيس تيتو، حتى اعترف دستور ١٩٧٤ بكوسوفا كوحدة فيدرالية مستقلة،

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

ولكن وفاة تيتو في مستهل الثمانينات مكنت الصرب من تعديل الدستور وابتلاع كوسوفا مرة اخرى، الأمر الذي رفضه المسلمون، وفي طور تفكيك الاتحاد اليوغوسلافي اجروا استفتاء فيما بينهم (سبتمبر «ايلول» ٩١) أسفر عن انحياز الاغلبية للاستقلال، وتطور الأمر الى انتخاب مجلس نيابي وتشكيل حكومة وتنصيب رئيس لجمهوريتهم المستقلة، هو الناقد الادبي ابراهيم روغوفا (٤٧ عاما).

تجاهلت الحكومة الصربية كل هذه الاجراءات، واعتبرتها كأن لم تكن، ومازالت الى الآن تعتبر قضية كوسوفا شانا داخليا، حتى رفضت مناقشتها مع دول المجموعة الاوروبية، كما رفضت ادراجها على جدول اعمال مؤتمر لندن.

في الوقت ذاته فان السلطات الصربية عمدت الى تدمير وسحق كل المؤسسات التي يديرها الألبان المسلمون في كوسوفا، فأغلقت المدارس الثانوية والاعدادية، فحرم من التعليم ٤٢٠ الف تلميذ، وطردت ستة آلاف مدرس مسلم من أعمالهم، وأوقفت الدراسة بجامعة بريشتينا، واستولت على المكتبة الكبرى، كما عطلت التليفزيون وصادرت الصحف الألبانية، ومنذ عام ٨٩ والى الآن، تم فصل نصف مليون عامل مسلم من أعمالهم، وطرد ألف طبيب من وظائفهم، وفي الوقت ذاته جرى تمشيط المدن والقرى الألبانية لمصادرة أي سلاح لدى الأهالي، بل ومصادرة كل مخزون طعام في البيوت.

بالمقابل فان الصرب الذين لا تصل نسبتهم الى ١٠٪ من السكان يزودون بالسلاح علنا، ويمكنون من الاستيلاء على بيوت المسلمين وممتلكاتهم، ويستقدم آلاف منهم من خارج الاقليم للاستيطان وسط احياء المسلمين، وذلك كله يتم تحت حراسة عشرات الآلاف من الجنود الصرب الذين وزعوا على كل المواقع الاستراتيجية في المدن والقرى الكوسوفارية، بينما نصبت المدافع فوق التلال والمباني العالية لارهاب الأهالي والتلويح لهم بالمصير الذي ينتظرهم ان هم حاولوا المقاومة وأصروا على الاستقلال.

قياسا على الحاصل في البوسنة، فليس هناك خلاف بين المتابعين للحدث على ان المذبحة القادمة في كوسوفا، ليس ذلك فقط وانما ستكون - اذا وقعت- أشد وأقسى، وهو ما حاولت التنبيه اليه في بداية مأساة البوسنة، وما تردده كتابات عديدة الآن، وفي عددها الاخير قالت مجلة «تايم» ان كوسوفا هي «برميل البارود» الذي سينفجر اذا مسته شرارة من أي جانب.

وفي حديث نشرته «التايم» للورد كارينجتون الذي استقال من منصبه كمفاوض باسم المجموعة الاوروبية في

عن «يوسبنسان»

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الازمة اليوغوسلافية، كان تقدير الرجل انه: اذا أمكن احتواء حرب البوسنة فلا خطر من انتشارها، لكن الخطر الحقيقي في كوسوفا، التي اذا وقعت فيها الواقعة، فسوف ينتشر لهيب الحرب في البلقان.

«السيناريو» المتصور في هذه الحالة كما يلي:

اذا استمرت سياسة الصرب التوسعية فسيبطشون بكوسوفا لا محالة باسلوبهم المعهود، وعندئذ فليس متصورا ان تقف «البانيا الام» متفرجة ولا مكتوفة الايدي، بل ليس أمام الالبان سوى خيار واحد هو التدخل باية صورة لحماية بني جلدتهم من حرب الابادة التي حدثت في البوسنة، وما نقوله ليس من قبيل الافتراض، ولكنه تلخيص لتصريحات رسمية صدرت في العاصمة الالبانية تيرانا، على لسان رئيس الجمهورية صالح بيريشا وتضمنها قرار للمجلس النيابي الالباني.

وقد أوفد الرئيس الالباني مبعوثا له قام بجولة عربية في شهر اغسطس الماضي، وقال في تصريحات منشورة «ان اي عدوان على الالبان في كوسوفا او سنجق او مقدونيا لن تسكت عليه حكومة تيرانا، وبرغم ضعف الامكانيات الاقتصادية والعسكرية لالبانيا، إلا انها ستتدخل اذا لزم الأمر».

البانيا ليست وحدها، فقد وقعت في شهر يونيو «حزيران» الماضي معاهدة عسكرية واقتصادية مع تركيا، وفيما نقلته مجلة «نيوزويك»، فان رئيس الوزراء التركي سليمان ديميريل قال للرئيس الالباني صالح بيريشا: سنقف الى جانبكم اذا حدث شيء في كوسوفا.

هل تجر تركيا للحرب؟

اذا انجرت تركيا الى النزاع فلن تظل بلغاريا بعيدة عنه، اذ فضلا عن العداء التاريخي بين البلغار والصرب، الذي يدفع صوفيا دائما للوقوف في المعسكر المعاكس لبلجراد، فان محور بلغاريا -تركيا-البانيا، هو المرشح لصد واجهاض مشروع صربيا الكبرى، باعتباره مهددا لها، ولا ننسى في هذا الصدد ان في بلغاريا مليون مسلم من اصول تركية.

على الجانب الآخر فان صربيا لا تقف وحدها، اذ هي الآن توظف التاريخ والدين والعرق لصالح معسكرها، وستمارس المنهج ذاته اذا اتسع نطاق المواجهة.

فصربيا واليونان يجمع بينهما العداء التاريخي لما يسمى «بالشيطان التركي»، وصربيا الكاثوليكية مدعومة بروسيا ورومانيا المجاورة وهما دولتان كاثوليكيتان، وصربيا ذات الاصول السلافية مطمئنة الى مساندة كل أفخاذ «القبيلة» السلافية المنتشرين فيما بين موسكو وبوخارست.

مقدونيا ورقة مرشحة بدورها للتفاعل، فقد بدأت دولة وانتهت شرائم توزعت بين بلغاريا واليونان ويوغوسلافيا، اذ دخلت نصف مساحة مقدونيا التاريخية ضمن الاتحاد اليوغوسلافي، وتحولت الى اقليم مستقل ذاتيا، وبعد التفكيك تطلع ابناؤه الى الاستقلال الكامل وانتخبوا رئيسا لهم، يحاول الآن الاستفادة من توازنات المنطقة لتعزيز استقلال بلاده، لكن اليونان تعتبر ان مقدونيا جزء من اراضيها وان شعبها هو شعب يوناني منذ القدم، ولذلك فان ضغوطها مستمرة على المجموعة الاوروبية لكيلا تعترف باستقلال مقدونيا، غير ان بلغاريا كيدا في صربيا اعترفت بمقدونيا كدولة مستقلة، وتوسطت لدى روسيا لكي تبادر باعلان مماثل، وهو ما تحقق بالفعل، ولاحقا اعترفت تركيا بمقدونيا كيدا في اليونان!

ولمواجهة تحالف الصرب مع اليونان، فان مقدونيا التي تريد الاستقلال عن الصرب وترفض الانضمام الى اليونان، عمدت الى مد جسورها مع بلغاريا، وزار رئيسها جيلو جيليف العاصمة البلغارية صوفيا لأول مرة في الشهر الماضي، واشارت تحليلات عدة الى ان هدف الزيارة هو اقامة محور يضم بلغاريا وتركيا ومقدونيا، في مواجهة تحالف صربيا مع اليونان.

في تقرير لها حول أزمة المنطقة، كتبت «الديلي تلجراف» البريطانية (عدد ٨/٢٠) تقول: «يخشى كثيرون من انه في حالة تورط صربيا في سحق ألبان كوسوفا، فان الحرب ستعبر حدود يوغوسلافيا القديمة لتتحول الامر الى بلقنة حقيقية، فقد يتم جر الالبان انفسهم الى المعمعة، ومعهم بلغاريا وتركيا، بل وربما اليونان ايضا اذا ما تاثرت مقدونيا بشيء».

المعلق الأمريكي المعروف «لسلي غيلب» كتب في «نيويورك تايمز» (عدد ٦/٤) محذرا من اضطرار البانيا الى دخول الحرب اذا ما هوجمت كوسوفا، ومن اشتعال الحرب بين مقدونيا واليونان اذا تيقنت الاخيرة من ان المقدونيين سيذهبون بعيدا في التمسك باستقلالهم.

الفتن النائمة تستيقظ

وفيما توقع ان تلك ستكون ارهاصات الفوضى في البلقان، فانه لم يستبعد ان تنتهز دول اخرى الفرصة لسحق الاقليات

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

«المعادية»، وذكر انه «في هذا الاطار، يمكن ان يصعد الارمن هجومهم على اذربيجان، مما قد يؤدي الى تورط تركيا في الصراع، كما يمكن ان تضرب الوحدات الروسية المسلحة الرومانيين في مولدافيا بقوة أكبر، مما قد يدفع رومانيا للدخول كطرف في النزاع، ويمكن ان يؤدي هذا بدوره الى افشال الجهود الاقتصادية الهادفة لمساعدة الامبراطورية السوفييتية السابقة، ومن ثم تقويض الديمقراطيات الوليدة».

ان القدر الواضح من التراخي في حسم العدوان الصربي من شانه ان يفتح الباب على مصراعيه لتنامي التطلعات القومية التي تهب ريحها بقوة الآن، خصوصا على اوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي السابق، الامر الذي يؤدي تلقائيا الى تراجع قيمة «التعايش» بين الاعراق المختلفة، وينمي روح الانانية لدى الشعوب تحت شعار: نحن أولا وليذهب الآخرون الى الجحيم.

في هذا المعنى نشرت «نيويورك تايمز» مقالا في الاسبوع الماضي تحت عنوان «الكراهية القديمة تعود للظهور»، ربط فيه كاتبه -اي.ام.روزنتال- بين حرب الكراهية العرقية التي يشنها الصرب، وبين ظاهرة تفاقم العنف الموجه ضد الاجانب في المانيا، وبين الطلاق الذي حدث حديثا وأدى الى تقسيم تشيكوسلوفاكيا بين التشيك والسلوفاك.

تساءل الكاتب في النهاية: لماذا أصبحت تفترض استحالة التعايش بين الشعوب المختلفة، حتى في ظلال الحرية والديمقراطية؟ وأعرب عن دهشته في ان تشهد اوروبا «المتحضرة» تلك الانتكاسات، بينما هناك دول أخرى مثل الهند واندونيسيا والبرازيل، وحتى الولايات المتحدة، تتمسك بوحدتها، بالرغم من احتوائها على خليط من الديانات والاعراق، ورغما عن تاريخها الحافل بالاضطرابات العرقية والاجتماعية؟

في هذا السياق أشار اخرون الى ان اكاديمية العلوم السوفييتية أحصت حوالي ١٦٠ نزاعا حدوديا في الاتحاد السوفييتي السابق، اضافة الى مائة صراع قومي، وقالوا ان اطلاق العنان للطموحات القومية بغير ضابط او رابط على النحو الحاصل في صربيا، من شأنه ان يحول تلك الرقعة الشاسعة الى ساحة حافلة بالحروب الاهلية، يدمر فيها كل شيء ويلتهم الاخضر واليابس.

الاحتمالات والسيناريوهات عديدة، والقاسم المشترك الأعظم بينها هو ان اوروبا لن تخرج سالمة من مأساة البوسنة، وانها قد تدفع ثمنا باهظا من جراء تقاعسها في كبح الجموح الصربي.

ان السهام المسمومة التي صوبت الى صدور المسلمين، مرشحة للارتداد الآن الى صدور الذين سكتوا على المنكر، وتسلوا بمتابعة المشهد... أو صفقوا له! ■

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية